جيل القلق والمأساة ...

بقلم محيي الدين صبحي

كان الجيل الذي قام بثورة الشريف حسين اول جيل تمرد على الاستعمار على اساس قومي عربي ، وان كانت الافكار الاسلامية ظلت تراوده ، لكن الثورة انهارت بسبب القاعدة الضيقة التي استندت عليها ، وتأسست بانهيارها دعائم استعمارية قوية عانى مأساتها وتحمل ثقل وطأتها الجيل الذي ولد ابان ارسائها .

ان الجيل الذي ولد ما بين ١٩١٥–١٩٢٥هو الجيل الذي تحمل الازمة السياسية للانسان العربي : امة ممزقة مستضعفة مغلوبة على امرها ، ليس لكرامتها حساب رغم ماضيها ومجدها . هذا الجيل هو الذي عاش مذلة امة وعاش التمرد على المذلة ، وكان وقودا لكل الحركات التي ترد الى العرب شيئا من قيمتهم . كان رفضه اول الامر عفويا عشوائيا ... تعبيرا من الداخل عن رفضه لواقع ورثه ولم يرد أن يستمر . وكانت الثورات التي لا تنقطع – في فلسطين مثلا – منفصلة مفككة ، وحين حاول الثائرون ان يوحدوا جهودهم فيما بينهم ، وبينهم وبين الاقطار العربية ، وجه اليهم الملوك والرؤساء انئذ النداء تلو النداء لمهادنة بريطانيا ! ذلك ان المستعمرين عرفوا كيف يربطون مصالح الطبقة الحاكمة بوجودهم ، فكف الحكام عن النضال وتحولوا الى التهريج بمفاوضات مطاطة في الامور الخارجية ، والى الاستبداد وخنق الحريات في الداخل . وبذلك انقلب الصراع من حرب ضد الدخلاء الى محاربة العملاء الذين يزداد تساهلهم مع المستعمرين كلما ازداد تذمر الاهلين والمخلصين ، وكان تسليم فلسطين للمحتلين اقصى ما بلغ به تراجعهم تجاه الاجنبي .

قبل فلسطين كنا نطلب الكرامة ، بعد فلسطين صرنا نطلب الحياة . فاذا صدقت نظريةتوينبي في التحديات«Challanges» على امة من امم القرن العشرين ، فانها لتنطبق على الامة العربية . لقد تحدت امم الارض وجودنا حين قذفت باليهود الى شواطئنا . واصبحت القضية حين رسموا حدود دولتهم بين الفرات والنيل : ان نكون او الا نكون ابدا . وليس امام الانسان اكبر من مشكلة وجوده ثم اثبات هوية هذا الوجود وثباتها . لقد كان جواب التحدي عنيفا عنفا ما شهده العرب منذ سيف الدولة الحمداني ! وقد كان رد الفعل شاملا لكل اقطار العرب في شدة واحدة لم يخففها القرب ولا البعد عن فلسطين ، وكان مرأى اللاجئين فجيعة للامة بمصيرها المرتقب . وقد عانت الامة العربية خلال عشرة اعوام ١٩٤٨ – ١٩٥٨ زلزلة خلخلت كل الصيغ التي كانت تؤلف شكلها العام ، فمخضت كيان الامة ونخلت افرادها حتى ان رجال الرعيل الاول في سوريا قد تلاشوا تقريبا منذ ميسلون الى الان بفعل الانقلابات والتغيرات السياسية . وكان ابناء ذلك الجيل – جيل ١٩٢٠ – ١٩٢٥ – قواد النقمة ووقودها ، حتى جعلتهم حماستهم يصنعون في يوم واحد ما صنعته مصر في خمس سنوات : الغوا الملكية ، انسحبوا من الاحلاف ، انضموا الى الصف العربي . ولئن كان قيام الجمهورية العربية المتحدة اكبر نصر للعرب منذ عمورية فان انتفاضة العراق اكبر تثبيت لقدم العرب في تاريخ العالم منذ اليرموك . وقد حمل الجيل الذي استلم قيادة النضال روحا عنيدة وعقيدة راسخة حتى صار يتقبل الخيبة والفشل تقبلا موضوعيا محضا . ولعل ابلغ دليل على صلابة النار في ضمائرهم ما نشرته الجرائد من وصايا زعماء الانقلاب العراقي الى ذويهم في حالة اخفاق حركتهم . ان رجلا يكتب وصيته بيده من اجل عمل قد يورده حتفه ، وبوسعه ان يتراجع عنه كلَّ لحظة ، لهو انسان تخطى انفعاله طاقاته ، حتى لم يعد يستطيع الا ان يعمل وباقصى حد من السرعة . لقد فقد قدرته على الاختيار بين الاقدام والاحجام لانه لا يرى طريقا غير الثورة . ان وصايا هؤلاء الابطال ، ببساطتها وشفافيتها وطيبتها تؤرخ لضمير جيل كامل .

هذا الجيل – جيل التحرير – ما زال يعمل في لبنان والجزائر وبقية الاقطار العربية . اما في الاقطار المستقلة فانه يتابع رسالته في تصفية الوضع الداخلي من العملاء ومحو القوانين الرجعية وادخال التصنيع ورفع مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

ذلك جيل عرف رسالته ، فكان جيل بطولات وملاحم واستشهاد وتحرر .

اما جيلنا (١٩٣٠ – ١٩٤٠) فهو جيل التمزق ، الجيل الذي يسأل دائما : من انا ؟ لماذا اعيش ؟ ما معنى حياتي؟ جيلنا الذي لم يعتمد استاذا غير سارتر ، ولم يعترف على شيء بعد ان يستريح من الازمات الداخلية – سوى القلق والغثيان والدوار،هذا الجيل هو الضحية لكل موروث فكري اوصله الينا المجتمع .

انه جيل يعيش على الصليب : عقله في اوربا ، وقلبه في دوامة ، وجسده مع القطيع ، ويدان تقبضان على الهواء .. انه جيل بلا دين ولا حقائق : مشلول، مترنح، لا يملك قبضة متينة يخبط بها وجه الطاولة وهو يصيح : هذا صحيح . ليس لديه شيء صحيح . اننا شبان تعبون من غير عمل ، هرمون دون زمن ، محنكون بلا تجارب ، بيوتنا الارصفة ، آلهتنا لم تأت بعد ، نزواتنا هي معشوقاتنا ، حياتنا بلا مخطط ... كلنا نطمع بالهجرة الى بلاد فيها حرية ، حب، قيم ، سلام .. وبالاختصار « حضارة » ! نحن لم نعش واقعنا مرة .. هربنا منه دائما الى الكتب او الى القمار او الى الاحزاب او الي الخمارات .. جيل متفسخ لم يعترف بمجتمعه ولا اعترف به مجتمعه .. غدونا غرباء . أناس بلا واقع ولا اهداف .. ولا وطن اذا كان الوطن مجموعة ارتباطات انسانية او ذكريات عزيزة ، واحلاما حلوة، وحبا غاليا وقيما سامية واسرة حنونا . نحن مسخ حضاري ابتدأ بالقرآن والسنة وانتهى بعد تطور عميق برأس المال والغثيان والغريب ، فتمرد عالمنا على القوانين ولم يحفل بالخطط او المناهج . انعزل الفرد عن اهله وذويه وتفرق عنه اصحابه واخوانه ثم انفصل عن نفسه وعاش في جحيم من الصراع مع نفسه والناس ، حتى انهد امام قوى غير مرئيـــة ولا محدودة كنسر جريح يرمق القمة وفي قلبه امل وفـي عينيه دموع . جيلنا مفجوع باعز ما لديه : حياته . واذا كانت قيمة الحياة في ما ننجزه خلالها فان حياتنا ــ الـى الان ــ ليست ذات قيمة تقريبا ، واذا اردنا ان ننصفها قلنا ان قيمتها هدمية تخريبية تمردية ، لم تعرف ابدا ان تستقر نشأنا في عالم كل لذات حياته حرمات : الجنس حرام . الرأي حرام ، الخمر حرام .. سلبية مطلقة ما عرفنا من خلالها منفذا للحلال والهروب من العذاب ! وجاءت السينما ففجرت في قلوبنا ابارا من دم وجروحا من صديد : رأى جيلنا الحب حلاوة ما عرفها ، والحياة انطلاقا ما جربه ، والجمال فتنة مجلوة وعهـده بها يخفيها من القطن والحرير الف حجاب والف ستار ، فتضاعفت فجيعته : كان محروما ولا يعرف فصار محروما ولديه المعرفة . ضاع شبابه ولم يستطع ان يأخذ مكانه لا في الحياة القديمة لانه رفضها ولا في الحياة الجديدة لانها فاجأته ، فعاش في احلامه بعيدا عن كل واقع ، مذهولا من هول الصدمة : كل ما يعرف انه حرام ، اصبح حلالا بالضرورة .. اليس في هذه المأســاة شيء من أوديب ؟

جيلنا يحمل المأساة بكل انواعها : انه يعاني مأســاة وجوده انسانا ، عربيا ، يعيش في القرن العشرين . وهو غير مطالب ــ تجاه نفسه على الاقل ــ بالهدم فقط ، انـه ــ لكي يعيش بحاجة الى بديهيات يبني عليها حياته ، انـه يفتقد هذه المسلمات التي لا بد منها افتقادا مريرا يحطم اعصابه ويجعل راحته شيئا يكاد يكون مستحيلا . فنحن دائما نشكل القاعدة الاساسية التي تدعم نضال الجيل السابق ، حتـى جاء وقت كنا فيه امناء على الاتجاه الثـوري : نحفظـه ونصونه وديعة غالية في قلوبنا ودمائنا ، ندعو اليه بين جدران المدارس والمعتقلات . وما أن تخف الازمة السياسية وتقترب النجاة من أرض الوطن ، حتى نعود الى خلافاتنا الاساسية(*) التي لم يمارس منها الجيل الماضي الا القليل والتي مبعثها القلق على مستقبل امتنا والحرص على الا تضيع الانتصارات والتضحيات سدى .

ان جيلنا مدعو الى حمل القلم الى جانب السلاح لندعم نهضتنا السياسية ــ العسكرية بنهضة فكرية اجتماعية تتلاءم وروح العصر .

وكما كان التوفيق بين الفلسفة والدين، هو العمود الفقري لافكار العصر الوسيط، كذلك فان روح العصر تتجلى في التوفيق بين الحرية والاشتراكية . ومصدر قلقنا اننا لم نكتشف الحقيقة . اي اننا لم نتبن بعد مباديء عملية واقعية تصون انتصارات امتنا وتزيد عليها تقدما حضاريا . اننا قلقـون لاننا مخلصون جدا ، مرضى حساسية نحو الاصلح والافضل والاكمل لامتنا العظيمة . اننا قلقون لاننا نرى سبلا عديدة كلها صالحة ، لكننا نريد الصلاح المثالي والنهائي ، جامعـا لاكثر الحسنات واقل الاخطاء . اننا قلقون لاننا لم نختـر بعد ، وليس لاننا بوجوازيون نشعر بارتجاف الارض تحت

(*) اتفق حزب البعث العربي الاشتراكي مع الحزب الشيوعي في احدى الفترات ، ولكن الجدل والمناقشات بين الشبان الصغار من الحزبين استمرت وكأن شيئا لم يحدث

ثلاث ترانيم من بلاد الرافدين

« هدية الى الشبيبة العربية في كل اجزاء وطننا الكبير »

١ ـ ترنيمة تموز

في فجر يوم دافىء حنون
أطل « تموز » الحبيب
أبدع ما يكون
يحمل في طياته بشائر الصباح
لنا ... لكل امة العرب
بمولد الضياء في العراق
بغنوة الكفاح :
« النصر لن يكون الا للشعوب
فليخرس الذين يبتنون
في كل يوم قلعة ، ليبتنوا السجون »
فيا رفاقنا ، في اعمق الاعماق
لكم ... لكل أمة العرب
محبة مطبوعة على القلوب
ونحن في غد وعن قريب
سنلتقي بكل امة العرب
في دفء يوم مبدع حنون

٢ ـ ترنيمة الوحدة

وحدتنا الغراء يا رفاق
عميقة الجذور
تحمل في طياتها علائم النشور
والبعث ، للذين يكدحون
لكل عامل ينوء بالعذاب
لكل زارع يحلم بالحصاد
لكل طالب يشتاق للعلوم
... وحدتنا الغراء من ثمار
جهادنا العظيم
آمنت بالجهاد يا رفاق
بالتضحيات ، بانبعاثنا الجديد
فلتهتفوا
للوحدة الطيبة الثمار

٣ ـ ترنيمة الطريق

طريقنا وعر طويل
فلتطردوا اليأس المريع والشجون
فعزمنا العظيم لن يهون
ونحن لن نهون
ونحن ، عندما نريد ان تكون
بلادنا بكل ما فيها لنا
فللقلوب عزمها العنيد
وللرجال غضبة الابطال
فباركوا النضال بالاعمال
في دربنا المجيد ...

الجمهورية العراقية ـ الحلة

علي الحسيني

اقدامنا وبان ايامنا اضحت معدودة . اننا ما نزال الطليعة الواعية لامتنا الفتية ، وعلينا نحن ان نقرر لها الطريق الذي سوف تسلكه .

واذا كنا مترددين فذلك يعود الى سببين : الاول هو اننا نريد لاشتراكيتنا أن تحتفظ باكبر مقدار من الحرية الفردية لاننا في عصر نهضة، اي في الوقت الذي تأخذ الطاقة الفردية اقصى مداها في تفتحها ، لانها تنمو مستقلة عن اي شكل سابق يراد صبها في قالبه، وبذلك يخلق لدينا الفنان ـ المثال الذي يعيش فنه في حياته الشخصية : انه قصائده او ابطال رواياته ، كما عاش كازانوفا ودانتي وبايرون ، فيخصب ادبنا ويعبر جيلنا عن قلق عصره، ويسجل تطور العلاقات والمجتمع مبشرا بمجتمع جديد ، نصوغ نحن نزوغه المثالي ، ويعيش هو حياة تستند الى بعض البديهيات التي افتقدناها نحن، فاضطررنا الى خلقها ، نحن سنقدم ابداعنا له . اما هو فسوف يقدم ابداعه للعالم في حضارة جديدة ، نحن صخورها وهو بناياتها . فالحرية التي نبحث عنها اذن ليست مرضا بورجوازيا ، ولا موضة طبقة من الطبقات بل هي شرط اساسي لابداعنا واظهار اصالة اجاباتنا لمطاليب العصر . يجب ان تكون حريتنا في المناقشة مطلقة في كل المجالات السياسية ، والدينية ، والاجتماعية ، لان بناءنا الفكري سوف يتكون من كل الاراء التي يحتك بعضها ببعض حتى يخرج من الفكرة وطباقها حل شديد الانسجام مع روحنا العربية . وهنا نصل الى السبب الثاني لترددنا : اننا مقتنعون بضرورة الاشتراكية ولكننا نريدها ملائمة لروحنا القومية . اننا نريدها اشتراكية محلية . نحن نحب ماضينا ونفخر به ولن نسمح لاية عقيدة ان تمسه بسوء او تدعو الى تخلينا عنه ، فهو جزء من وجدتنا . لذلك نرفض كل الحلول المستوردة أو المفروضة من أعلى اذا كانت لا تنسجم مع روح شعبنا وماضيه العريق .

وحين نعطي المفكرين حرية في الانتاج ونضمن لهم سلامتهم من النفي والسجن والحرق والتعذيب ، تشق الاراء التقدمية طريقها بيننا ، فنتخلص بتطور هادىء سليم من عقد الجنس ، وخرافات العقائد ، وتعصبات المذاهب ، وقلق فترات الانتقال . ونخلق جيلا يمارس حرياته الديمقراطية وينصرف الى البناء على الارض التي أوجدنا ترابها من افكارنا ، بعد ان صبغها أسلافنا بدمائهم .

دمشق

محيي الدين صبحي